الزبيري

شاعر الوطنية في اليمن

بقلم: عبدالقادر ماهر *

ولد الشاعر محمد محمود الزبيري في مدينة صنعاء عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٧م وتلقى تعليمه في الكتاتيب ، حيث لم تكن هناك دراسات نظامية . وهاجر بعدها الى تعز في شبابه حيث تلقى دروس بعض علوم اللغة العربية في مقام الامير السيد علي الوزير الذي رافقه مع ابنه عبدالله بن علي الوزير الى الحج سنة ١٣٥٧هـ ــ سنة ١٩٣٨م ثم ذهبا الى القاهرة وهناك التحق ، مستمعا ، بكلية دار العلوم حتى عاد الى صنعاء سنة ١٩٤١م ، واستطاع خلال هذه الفترة استيعاب حركة الشعر العربي المعاصر .

وهكذا بدأ حياته طالب علم ثم مشاركا في الحركة الفكرية ، حتى أصبح ذا عقل ناضج ووعي سياسي عال . ثم عاد الى وطنه اليمن ليشارك في كل أحداث البلاد السياسية والفكرية فتحمل العنت والاضطهاد الى أن عين وزيرا للمعارف في حكومة ثورة الدستور عام ١٩٤٨م .

ولما أخفقت ثورة الدستور فر الى خارج البلاد ، واختار باكستان ودخلها غريب الاهل واللسان حيث مكث مدة أربع سنوات يرقب الحركة السياسية التي تمر بها بلاده ، ولما أعياه الصبر على الفراق عاد ثانية الى بلده سنة ١٩٥٢ (١) . فطورد وزج في غياهب السجون ولبث في سجن المشبك ــ بالاهنوم (٢) .

عين في أعقاب ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ وزيرا للتربية ، ثم نائبا لرئيس الوزراء لشؤون التعليم والاعلام الى أن استشهد عام ١٩٦٥ . عاش الزبيري

---

* يعمل مديرا لثانوية ابن سيناء بحلب ــ سوريا .
حصل على درجة الماجستير من الجامعة اللبنانية سنة ١٩٧٣ برسالة عن « دعبل بن علي ــ شاعر خزاعة المنافح عن آل البيت » .
ــ صدر له بحثان عن :
١ ــ أثر الخوارج في الادب العربي .
٢ ــ الامام الرضا .

سبعة وأربعين عاما قضاها مدافعا عن مبادئه الوطنية والانسانية وعن حقوق الشعب اليمني .

اوجد الزبيري مدرسة يمنية معاصرة تضرب جذورها في القديم وتمتد فروعها الى زمنه وقد نشأ في اليمن شباب مثقف تأثروا به ، واحتذوا حذوه في توعية الجماهير ، وفضح الاعيب السياسة المحلية ، وكشف أساليب حكم الائمة الرامية الى التجهيل والتأخر ، حتى غدا الشعب اليمني وكأنه يعيش زمن العصور الوسطى .

من هؤلاء الشباب **محمد احمد الشامي** والشاعر **احمد محمد الشامي** (٣) ، والواقع أن مدرسته هذه ظلت تخرج العديد من الشعراء الذين احتواهم سجن ــ حجة ــ الذي تحول الى مدرسة شعر تبارت فيها القرائح ونظمت الاشعار الغاضبة ذات المنحى الوطني والاتجاه القومي .

اخذ الزبيري يناهض حكم الفرد ويواجه الامامة والاوضاع الفاسدة في شمالي البلاد للوصول الى الحرية والاستقلال .

يقول الدكتور عز الدين اسماعيل : « **ان صوت الزبيري وحده الذي ظل يقاوم الطغيان ويضرب جدرانه بكل ما يملك من طاقة وعنف ، ولذا يعد الزبيري رائد الاتجاه الوطني في شعر اليمن المعاصر** » (٤) .

وان ما نظمه الزبيري من شعر وطني قد رافق الحركة الوطنية في اليمن منذ ظهورها وكان جزءا منها ، تستكمل مقدماتها فيه .

وقصيدة الزبيري (الخروج من السجن) ذات النبرة العالية المتحدية والعاطفة الحارة الملتهبة تعد بداية هذا الانعطاف الكلي في الشعر الوطني اليمني عامة . كما كانت النشيد الوطني الذي تردده الجماهير الغاضبة ، نظمها الزبيري وهو يغادر قصر الطاغية في طريقه الى الشعب .

خرجنا من السجن شم الانوف ... كما تخرج الاسد من غابها
نمر على شفرات السيوف ... ونأتي المنية من بابها
ونأبى الحياة اذا دنست ... بعسف الطغاة وارهابها
ونحتقر الحادثات الكبار ... اذا اعترضتنا بأتعابها
ستعلم أمتنا أننا ... ركبنا الخطوب حنانا بها
. . . . . .
أنفنا الاقامة في عصبة ... تداس بأقدام أربابها
وسرنا لتفلت من خزيها ... كراما ونخلص من عابها

ثم يخاطب الامام الظالم :

فيـــا ملـكا لـج في بطشـــــه ... وداس البـلاد وأخـلى بهـا
ودب لامتـــــه في الظـــــلام ... دبيب اللصـوص لاسلابهـــا
وذر الغبـــــار بأجفـانهـــا ... وصب السمـــوم بأعصابهـا
نهضت لتخـــريب عمـرانهـــا ... وقمت لتحطيـــم ألبـابهـــا
ألم تخش مـــن أمـــة أصبحت ... اليـــك تكثـر أنيـابهـــا (٥)

ان الزبيري يعلن خروج اليمن من الكهف السحيق المظلم الذي عاشتـــه عصورا طوالا كما يصف أبناء اليمن الجياع العرايا مثقلين بالمخاوف وأوهـــام الخرافة .

ثم يؤكد في قصيدة اخرى أن حمل القيود أصبح خيانة يحاسب عليهـــا المظلوم أكثر مما يحاسب عليها الظالم .

لنمت أو نعش على الارض أحـــرا ... را ولا عـــاش من يسيغ الاهانة
ان شعبـا يرضى الحيـاة سجينـا ... لا يسـاوي في قيمـة سجـانه
وحيـاة تصـــان بالهـون والاذلا ... ل ليست خليقـــة بالصيانـة (٦)

انها تحدد مفهوم الوطنية حيث يرتفع فيها صوته معلنا انقراض كل انواع العبودية التي كرسها الائمة على أبناء اليمن .

ولقد كانت وطنيات الزبيري صدى لخلجات الشعب وأناته ، فقد هـزت الاوضاع السيئة في البلاد ، وكانت ردود الفعل عند الحاكمين سريعة كلما سمعوا أن الزبيري أعد قصيدة من الشعر .

وقد أصدر الامام يحيى أمره الى الجنود بهدم بيت زيد الموشكي في زمـا وبيت نعمان في تعز . حيث كون اليمنيون « **حزب الاحرار** » في عدن بسعي من الزبيري والاستاذ أحمد النعمان وزيد الموشكي وغيرهم .

وبمناسبة اعلان هذا الحزب وانخراط الشباب المثقف في صفوفه فقد انشد الزبيري قصيدة القاها في حفلة الافتتاح ابتهاجا بميلاد هذا الحدث الخطير :

سجـل مكانـك للتـاريخ يـا قلم ... فها هنـا تبعث الاجيـال والامم
هنـا القلوب الابيـات التي اتحدت ... هنا الدنان هنا القربى هنا الرحم
هنـا العروبـة في أبطـال وثبتهـا ... هنا الاباة هنا العليا هنا الشمم

ثم يستبد به الغضب :

هنا البراكين هبت مـن مضاجعهـا ... تطفي وتكتسح الطـاغي وتلتهم
لسنا الاولى أيقظوها مـن مراقدهـا ... الله أيقظهـا والسخط والالـم (٧)

وقد لاقت هذه القصيدة صدى كبيرا في الاوساط الادبية العربية ونالت من عناية الدارسين الاهتمام الرائع ، يقول الدكتور عز الدين اسماعيل في تعليقه عليهـا :

« وقد ذاعت هذه القصيدة في أرجاء اليمن وصارت معلما يهتدي به الشعراء الذين جاءوا بعد الزبيري واقتفوا أثره ، ولكثرة ذيوعها وانتشارها بين الناس أصبحت تعرف بقصيدة (سجل مكانك) » (٨) .

وهكذا شهر الزبيري قلمه سيفا مصلتا على رقـاب أعداء الشعب وظل يشهره الى أن تحقق النصر أخـيرا بتفجير الشعب ثورة ٢٦ أيلـول ١٩٦٢ .

وقد هلل الشاعر الزبيري لانصار ثورة الشعب على الحكام الجائرين فقد نظم قصيدة اعتبرت فيما بعد شعار الثوار ونشيد الاحرار :

كفـرت بعـزمتي الصـامـدة ... وقدسيـة الغضبـة الحـاقدة
وعمـر شبـاب نـذرت بـه ... لشعبي وأهدافـه الخـالدة
وبالشهـداء وأرواحهـم ... تراقبنـي مـن عـل شـاهدة
اذا أنـا أيـدت حـكم الطغـاة ... وهـادنتهم ساعـة واحـدة
. . . . . .
وآمنت بـالشعب حتـى وقـد ... رآه الـورى جثـة هـامـدة
تـداعى حـواليـه أعـداؤه ... ليقتسمـوه عـلى المـائـدة (٩)

ان الزبيري يحدد في هذه القصيدة مفهوم الكفر والايمان بالوطن .

ويعود الفضل في اثارة روح التذمر والسخط والتمرد الى قصائده الوطنية التي عملت على التوعية الشعبية وهيأت النفوس لخوض الثورة ضـد الحكام الظالمين .

وتسود موجة مضادة في اليمن يسيّر دفتها تجار الوطنية ودعاة التخاذل والاستسلام ويثور الزبيري في وجه هؤلاء فيقول :

وكـم جـاهـل بحقـوق الوطـن ... يريـد عـلى كل خطـو ثمـن
وراح يلـوث طهـر الكفـاح ... ويبدي العيـوب ويذكي الفتـن(١٠)

ولا تقف مهاجمة الشاعر لتجار الوطنية بل تتعداهم الى أعوان الائمة ، ممن وجدوا أنفسهم في محراب الوثنية الامامية :

انثروا فوق خطى السفـاك أزهارا وورد ا
واجعلـوا كل دم يسفكه فخـرا ومجـدا

أوهمـــوه أنكم متـــم تباريحـــا ووجـــدا
وبأن الشعب ما جـــاع طوىً بل جاع فقدا
انمـــا يرجـــوه أن يمنحـــه غـــلا وقيـــدا (١١)

ثم يطلق الشاعر صيحة مدوية في وجه من يؤله الامام ويجعلون منه علـــة وجود الشعب :

اصرخـــوا في الاذان اللـــه أحمـــد واجعلوه ربا سوى الله يعبـــد
وازعمـــوا أنـــه الحفيـــظ على الار واح والمستعـــان في كل مقصـــد

الى أن يقول :

في يديـــه الارزاق يمنحهـــا مـــن شاء من شعبه فيغنى ويسعـــد
وهو ان شاء يمنـــع الرزق عن عبـــ ـــد فيعيـــا عن حيلة ويشـــرد(١٢)

ويستمر الزبيري في مهاجمة الائمة وهم مستعصمون في قلاعهم وحصونهم ويشهر بحكمهم المستبد الطاغي .

وبعد عودة الامام أحمد من روما وقد قصدها للعلاج حدثت حركة تمرد بين قبائل خولان فما كان من الامام أحمد الا أن ألقى خطابا في الجماهير المحتشدة من اعوانه مهددا بقطع الرؤوس والايدي والارجل ، سمع الزبيري بمقدمه فأعـــد ملحمة شعرية وكان وقعها كالبراكين الملتهبة ، يقذف كل بيت فيها باللهب والحمم في وجهه :

خطبة الموت فاسمعوهـــا وطـــيروا فرحا وارقصوا لصـــوت المنيـــة
أنتـــم في استقبـــال موكب جـــزا ر فمـــدوا رقـــابكم للتحيـــة
صـــدئت مديـــة الامـــام فاستـــر نـــح ايطاليـــا مـــدى بابويـــة
أنهـــك الذبـــح سيفـــه فأتانـــا بسيـــوف معـــارة أجنبيـــة(١٣)

هكذا تجاوز الزبيري في قصائده الوطنية الرائعة دور الايقاظ والتحريض الى دور التخطيط والتنفيذ ، واذا استعرضنا كل ما نظمه في هذا الاتجاه فاننا نعثر على كثير من المواقف الوطنية التي وقفها الزبيري سواء أمام الائمة الظالمين أو أمام اعوانهم المتخاذلين فانه لا يألو جهدا في رصد كل حركة من شأنها ان تبعث روح الوطنية والتضحية لدى ابناء الشعب العربي في اليمن .

ولم يكن الاتجاه القومي بمعناه المتعارف عليه معروفا قبل الاربعينات لدى شعراء اليمن ولعل أول نموذج يعبر عن هذا الاتجاه هو ما نظمه الزبيري في حفل الطلاب العرب بالقناطر الخيرية سنة أربعين وتسعمئة والف أثناء اقامته فـــي القاهرة للدراسة :

طال الفـراق وطال منـه شقاؤنـا ... في حمـأة الاضغـان والاحقـاد
عشنـا كما شـاء العدو معاشنـا ... وكمـا أراد فكان شـر مـراد
نمنـا ولم نفـزع لاهوال الـردى ... والحادثـات روائح وغـوادي
ونـدل للغـرب القـوي بعلمـه ... دنـى ولو أضحى دفين رمـاد
وأقـل جهد مـن سلالـة يعـرب ... أن يشرحوا للناس معنى الضاد(١٤)

وللزبيري قصيدة (الخروج من العزلة) بمناسبة رحلة الامير عبدالله خارج اليمن وفيها تصوير دقيق لمشاعر الاخوة بين ابناء الامة العربية الواحدة :

سال جرح بالشام فاضطربت نجـد ... وسمت لـه عيـون الكنـانة
وتنـزى العـراق غضبـان كالليث ... اذا سامـه الغبـي المهانـة
واستفـز الشعب اليمـاني حفاظا ... فانتضى سيفـه وهز لدانـه
وشجى الاردن المصـاب كان قـد ... دمـر المعتـد يلـه عمـانه
وفلسطين خبـأت جرحهـا الـدا ... مـي وهبت لجارهـا غضبانه
نكبة الشام وطدت برلمـان الشـا ... م رغم العـدا وأعلنت كيـانه
نكبة الشـام وحدتنـا فمـا مـن ... عـربي الا بكـى برلمـانـه
صار قلبـا يحرك العرب العربـاء ... ويجـري في أرضهـم شريانـه(١٥)

وعندما تأسست جامعة الدول العربية عام خمسة واربعين وتسعمئة والف كان الزبيري حسن الظن بمستقبل الجامعة الوليدة وبما ستحققه للعرب من امال عريضة وعميقة وقد نظم بهذه المناسبة قصيدة بائية منها :

جبـل صحـا دمـه وهـب ... لبنـاء جامعـة العـرب
ضم القـوى فيهـا بعصـر ... قـد تـداعى واضطـرب
وبنـى قواعـدهـا عـلى ... أسس لمـا فيهـا العجـب
شتـى شعـوب ينتمـي ... دمهـا الـى أم وأب(١٦)

أما قضية فلسطين فترجع علاقة الزبيري بها الى عـام ثمانيـة وثلاثين وتسعمئة والف حيث نظم قصيدة في هذه القضية وهو في تعز بعنوان « **ما الشعر الا ما حوى روحا به يحيي الشعوب** » وحين اجتمعت الدول العربية في لنـدن لبحث القضية على ضوء وعد بلفور وصدور الكتاب الابيض فأنحى باللائمة على بريطانية وحملها مسؤولية ضياع جزء غال من الوطن العربي قال القصيدة التالية:

فيـا بريطانيـا عـودي بمخمصـة ... ان العروبـة لا شـاء ولا نعم
ان العروبـة جسم وان يئن لـه ... عضو تداعت لـه الاعضاء تنتقم
ان يضطهـد بعض فالكل مضطهـد ... أو يهتضـم جـزء فالكل مهتضم

. . . . . .

ان الكتـــاب الذي جدتم بـــه ثمنـــا ... لارضهم ليس يكفيهم اذا اقتسموا
لم يحسبوه سوى أكفـــان عزتهـــم ... نسجتموه لهم ظلما وان زعمـــوا
ان الدمـــاء التي ســـالت بمديتـــكم ... لم يشفها منكم القرطاس والقلم
ان الخداع الذي دانت سياستـــكم ... بـــه لاعظم ما تنقى بـــه الامـــم
ظلمتم العـــرب للصهيـــون ويحـــكم ... أين الدهـــاء وأين العدل والقيم
أضحى اليهـــود صليبـــا تعبـــدونهم ... دون الصليب وانكان العبيد هم(١٧)

وعندما كان الزبيري في باكستان وحضر الدكتور عبد الوهاب عزام سفيرا لبلاده . أنشد الشاعر قصيدة في حفل الاستقبال ، هذا مطلعها :

أهـــلا بعـــزام وسهـــلا بـــــه ... من شعبـــه جـــاء الى شعبـــه
عزام يـــا مـــن روحـــه شعـــلة ... تكشف للشـــرق دجـــى خطبـــه
يـــا هبـــة النيـــل الـــى أمـــة ... تهيـــم في النيـــل وفي شعبـــه
أنظـــر الى الاســـلام مـــا بالـــه ... أجمعت الدنيـــا على حربـــه(١٨)

هذه القصيدة التي أنشدها في حفل استقبال عزام بباكستان قد حولت اتجاهه القومي الى اتجاه اسلامي ، رافقه الى نهاية حياته ، حيث حلت بعدئذ الرابطة الاسلامية محل الرابطة القديمة في أشعاره .

ويوم وقع العدوان الثلاثي على مصر كان الزبيري في القاهرة وقد آلمه مـــا حل ببور سعيد ، قال :

دول العـــدوان ثـــالـــوث بـــــلا مستطـــير
حشـــدت في بور سعيد كل أهـــوال السعـــير
يا دماء الشعب ثوري واصنعي روح الصقور
حطمي غـــلالك المر باعصـــار السعـــير (١٩)

لقد كانت قصيدة الزبيري مرآة صادقة أبرزت عواطف وانفعال الشاعر ، صور العدوان وانتهى إلى التعبير عن تفاؤله بانتصار الشعب العربي في بورسعيد وهزيمة دول العدوان وقد رسم الزبيري صورة عامة للجريمة النكراء وقد استمد ملامحه من الانباء التي ترامت الى سمعه ، فأبرز فيها المشاهد المثيرة ، دمـــاء الشعب الثائرة في العروق ، الاغلال بتبني تحطيمها .

لقد تجلت في القصيدة روح وطنية متأججة برز من خلالها وعيه السياسي بأبعاد واضحة ، نقمة على الاستعمار المتمثل في دول العدوان . تفاؤل تـــاريخي بهزيمته .

ولما قامت ثورة بغداد ، طرقت أنباؤها مسامع الشاعر فأسرع في نظـــم القصيدة التالية عبر فيها عن ثائرته الغاضبة للحكام العملاء في بغداد :

صيحة الشعب في بلاد الرشيد اشعليها نارا وثوري وزيدي
ازحفي كالطوفان يا ثورة الشعب الينا ودمدمي كالرعود
طهري جونا من الموت والصمت وهزي لنا بقايا لحود

الى أن استبد به الغضب فقال :

فاحذروا يا أحرار بغداد أن يسعى اليكم طغاتنا من جديد (٢٠)

رحل الزبيري الى باكستان ، حيث أخذ يعاني تجربة الغربة المريرة فراح يبكي هذه الغربة المريرة ، وثورته القتيل بشعر كان وما يزال رغم سوداويته من أروع أشعار ابن اليمن في ديار المهجر .

ولم يكن الزبيري وهو في المهجر ليعدم الوسيلة لايصال صوته وأشعاره الى أرض الوطن ، فقد كان أمامه الاذاعة الباكستانية ، وأن يراسل بقية رفاقه في عدن الذين سبق لهم وشكلوا معه أول تنظيم سياسي لانقاذ اليمن من كهوف التأخر وديا جير الظلام كان الزبيري يواصل الكتابة اليهم مبديا حسرته وأشواقه اليهم وأنه ما زال معهم على العهد وفيا مخلصا لمباديء الثورة .

ومن باكستان أرسل اليهم رسالة شعرية ما لبثت أن تسربت بسرعة الى كل مخلص للثورة في أرض الوطن ، والى من تهمه مصلحة البلاد في التحرير والتطهير :

أيها الاحباب ما زلت لكم — مثلما كنت وليا مشفقا
انني اذ أكتب الخط لكم — أحسد الحبر به والورقا
وبرسمي صورة ناطقة — فسلوها علها أن تنطقا
ان فيها مهجة .. كاملة — دركوها فعسى أن تخفقا(٢١)

ويقول الزبيري : كنت مشردا بعد نكبة سنة ١٩٤٨ ومطاردا الى كل بلد ولم أعرف ملاذا لي يومئذ غير باكستان ، وكانت قضية اليمن مجهولة هناك ، بوجود حواجز اللغة والعزلة والانقطاع الرهيب .

وفي الغربة نتلمس تجدد أبعاد الوطنية في شعره من جديد ، فهي هجوم سافر على صانعي التشرد والمطاردة ، ولم يكن لديه من سلاح سوى الشعر ، ثم الايمان بعدالة القضية التي يعيشها ويدافع عنها .

ولما كان يشعر بأنه مطارد كتب مرثاة ضارية على أثر فشل حركة ثورة الدستور عام ثمانية وأربعين وتسعمئة وألف ولم ينهها يومذاك . وفي عام اثنين وخمسين وتسعمئة بعد الالف وبعد نجاح ثورة ٢٣ يوليو في مصر وسقوط فاروق، عاد الزبيري الى الاسكندرية وطنه الثاني ، ففكر في اتمام تلك المرثاة وهكذا أتم

نظمها في حدائق قصر المنتزه .

وقد حفلت هذه المرثاة بايمان صادق تحول معه الدفاع الى هجوم والبكاء الى ثورة وهذه المرثاة تعد صورة فريدة لدى شعراء الاحتجاج والصمود ومطلعها:

مـا كنت أحسب أني سوف أرثيـه ... وأن شعري الى الدنيا سينعيـه
وانني سوف أبقى بعـد نكستـه ... حيـا أمزق روحي من مرائيـه
فـان سلمت فاني قـد وهبت لـه ... خلاصة العمر ماضيـه وآتيـه

. . . . . .

يا شعبنـا نصف قرن في عبـادتهم ... لم يقبلوا منك قربانـا تؤديـه
رضيتهم أنت أربـابـا وعشت لهـم ... تنيلهـم كل تقـديس وتأليـه(٢٢)
لم ترتفـع من حضيض الرق مرتبـة ... ولم تذق راحـة ممـا تعانيـه

ومن أشهر وطنيات الزبيري وأكثرها تداولا خلال فترة الاغتراب قصيـدة طويلة كان الشاعر قد ألقاها في ذكرى ميلاد الزعيم الباكستاني (محمد علي جناح) وهو يصور فيها شعور الجماهير الغاضبة ودورها الحاسم في تحقيق امالهـا البعيدة واسترجاع الحقوق المغتصبة :

أمـم الارض لا يرقعهـا الـرا ... قـع ترقيـع ثوبـه وكسائـه
ومصـير الشعـوب كالحـق لا ... يبنيـه بـان بوهمـه وادعائه
والمـلايين لا تعيش عـلى الشـك ... ولا تستقـر فـوق هبائـه
وشعـور الجمهـور أقوى من القـ ... ـول ومن حكمه ومن حكمائـه(٢٣)

والقصيدة ــ في الواقع ــ تتحدث عن الجماهير الباكستانية التي انتزعت وطنها من بين براثن التعصب والقهر الطائفي ، وفي صدد التعليق على هـذه القصيدة يقول هـلال نـاجي : وأعتقد أن الدافع الاساسي في كتابته (شعـر الباكستانيات) وجوده ضيفا عند قوم لا تربطه بهم سوى رابطة الدين الاسلامي.

وهكذا نرى الزبيري يشرق ويغرب في أرجاء وطنه الاكبر ، منفعلا بأحداثه معبرا عنها بأحاسيسه وعواطفه .

الشعـر الاجتمـاعي

غمس الزبيري قلمه في مداد الحياة الاجتماعية والمآسي اليومية للانسان فقـال :

ومـا حملت يـراعي خالقـا بيـدي ... الا ليصنـع أجيـالا وأوطانـا
يخالـه الملـك السفـاح مقصـلة ... في عنقه ويراه الشعب ميزانـا(٢٤)

ويعقب الزبيري بقوله : **كنت أحس احساسا أسطوريا بأني قـادر**

بالادب وحده أن أقوض ألف عام من الفساد والظلم والطغيان .

وتذكر المراجع أن الزبيري كان أكثر شعراء اليمن التصاقا بواقع الشعب الاجتماعي وأجهرهم بالتعبير عن مشاكله وأوضاعه ، فهو تارة **يفضح المتاجرة بالدين** وتارة أخرى **يكشفها باسم القيم الروحية والانسانية .**

ثم يشير الزبيري الى **وضع المرأة الفلاحة في الريف اليمني** وما تعانيه من حرمان وجور ولم تغب عن رؤيته الشعرية **قضية التعليم** وما له أثر في تطوير المجتمعات :

وكان يصور حياة الشعب وما يعانيه من تخلف وفقر وظلم ومرض وطائفية وجهل وقد عبر عن كل هذه السوآت بقوله :

أمة في الفلاة ضيعت النور ... فضلت بها ضلالا بعيدا
واستمرت في حيرة تقطع العمر ... ولم تلق للفلاة حدودا
موهت حولها الحقائق بالوهم ... فلم تلق للفلاة وجودا
فتجلت لها البغاث نسورا ... وتراءت لها القرود أسودا
وترى حية تدسبها سبحة ... مستغفر يطيل السجودا

. . . . . .

ليس الا بالعلم يستيقظ الشعب ... ويمحو عنه الخطوب السودا(٢٥)

وحديث الحب اخر ما يفكر به الزبيري المضطهد والمقهور على مصير شعبه ووطنه وفي هذا الجانب تحدث الاستاذ علي بن علي صبرة فقال : « **ان الشاعر محمد محمود الزبيري كان ذا مشاعر رقيقة واحساس مرهف شديد التأثر بالجمال والتفاعل مع مفاتن الطبيعة كأي شاعر موهوب ، ولكن حبه لوطنه وتعلقه ببلاده قد ملكا عليه كل وجدانه ، فجاءت قصائده الوطنية لتمثل القمة ليس في الشعر اليمني فحسب بل في الشعر العربي المعاصر من أجل ذلك لم يؤثر عنه شعر غزلي أو نسيب** » (٢٦) .

ويقول الاستاذ عبد العزيز عتيق : « **ان الزبيري شاعر طغت السياسة على حياته وعلى انتاجه الادبي شعرا ونثرا ، ومفهوم الشعر عنده مفهوم سياسي لا يتعداه ، وما أظنه في المرحلة التي عاشها وشارك فيها في تاريخ وطنه كان يستطيع أن يكثر من الشعر في أي غرض اخر غير السياسة والا فكيف كان يتأتى له وهو الشاعر الوطني الغيور أن يغني للحب والطبيعة وهو يرى كل يوم مآسي شعبه ما لم تتنكب به الانسانية في أحلك العصور** » (٢٧) .

ويقول الاستاذ علي بن علي صبرة : « **لقد ترك الزبيري ستة أبيات من**

الشعر الوجداني العاطفي ورغم انها تمثل الشعر الوجداني الا أن الزبيري يظهر فيها معتذرا لانه شاعرالنضال والثورة لا شاعرالهوى والشباب والاحلام »(٢٨).

ولاستيفاء هذا البحث يجدر بنا أن نذكر هذه الابيات الستة كشاهد كما تكلم الاستاذ صبرة : قال الزبيري يتغزل :

اغفري لي اذا تطلعت مأخو ... ذا الى وجهك الطهور السني
ما على الشمس لو غسلت بومض ... من سناها ظلام قلب شقي
لمسة من هواك تشعل أعما ... قي وتضفي علي حس نبي
أنت لست المها يصول عليها ... كل ذئب على المها وحشي
لم يصفك الاله من صيغته المثلى ... لنسل أو مأرب همجي
أنت في ناظريك روح اله ... خالق كل خالق عبقري

والواقع أن الزبيري كان مقلا من نظم الشعر الغزلي للاسباب التي سبق ذكرها مما حدا بالادباء اليمنيين أن يجدوا عدة مقالات تنعت الزبيري بأن دواوينه الشعرية مفتقرة الى القصائد العاطفية وقد اثر عنه قوله :

كلما نلت لذة أنذرتني ... فتلفت خيفة من زماني
واذا رمت بسمة لاح مرأى ... وطني فاستفزني ونهاني (٢٩)

ولم يقف الزبيري هذا الموقف فحسب بل أخذ يهاجم ادب الشباب لانه يساوي بين شعر العاطفة الذاتية في مرحلة الايقاظ والمجابهة بشعر المديح ولغة العبودية بل يبدو — في نظره — مترددا مذعورا يسبح بالظلم ويتغنى بالهوى ويمجد اللذة في ظروف العزاء والحداد الوطني ، فهو يستغرب هذا الموقف منهم ويعتبر ذلك تخاذلا وتحللا من المسؤوليات الوطنية وينعتهم بأنهم غير ملتزمين .

اغراضه العامة

نظم الزبيري الشعر في مختلف الاغراض ولكنه اكثر من المديح والرثاء والشكوى .

ا — المديح : للزبيري قصائد موسومة بالمدح سماها القصائد الوثنية حيث تصوره قادرا على أن يتولى عملية التغيير والاصلاح في البلاد ويعد مديحه سياسيا أكثر منه شخصيا حيث يحشر مصلحة بلاده في هذا المجال . وفي مديحه تتجلى قدرته على تحميل الاغراض القديمة مضامين جديدة تخرج أحيانا بها عن مناسباتها التقليدية فهو يمتدح ولي العهد الذي أصبح فيما بعد اماما يتوسم فيه الخير لامته بكاملها :

واسمح فقد أوتيت بالعدل المنى ... وسواك يسعى للنجاح فيخفق
وملكت شعبا لا يحطم أنفه ... مما يصيب ولا قذائف رشق(٣٠)

ولا ندري ان كان الشاعر هنا يمدح أم يهاجم يتقدم بالزلفى الى الشعب أم الى الحاكم ان الشاعر كان مخدوعا بالممدوح منفعلا بالاعيبه التقدمية ، فان ممدوحه الاكبر الشعب ومن خلال المديح كان يقدم الهجوم والتعريض .

وهذا اسلوب جديد في المديح يمكن أن يسمى بالمديح الاجتماعي ، وفي مديحه للامام كان يحاول أن يؤكد وجود الشعب ازاء هذا الحاكم الباطش .

وله قصيدة أخرى توجه بها الى نفس الحاكم الممدوح وفيها مدح ظاهر يخفي الشاعر خلفه مشاعر السخط والالم وكان يظن أن يحرك في الحكام الجامدين أشواق البطولة واحلام المجد بما يلقنهم من أهداف الحكم الصحيح :

بعثت شعبا دفينا كان منطبقا ... عليه تراب واشواك واحجار
فقام نحوك يلقي التراب في يده ... فتنجلي عنه أوصاب واكدار
يرى بانك من يهوى فليس له ... في غير ذكرك تهيام وتسيار
يرى بوجهك امالا تسجلها ... لنا شهور وأعوام وأعمار(٣٠)

وهو يحاول الاغراء بأشواق البطولة وأحلام المجد :

يا حامل الشعب الكبير بقلبه ... الشعب في طيات قلبك يخفق
جدد له عهد الجدود بعزمه ... لو تجذب الماضي لجاءك يشرق(٣١)

وهكذا حاول الزبيري اتباع أسلوب جديد يتناسب مع روح العصر وطبيعته في تجديد الاغراض القديمة وفي تطويرها لنقل مشاعره الجديدة .

ب ـ الرثاء :

ولعل الرثاء يكون من أكثر الاغراض التقليدية التي اكتسبها اسلوب الاداء المعاصر لدى الزبيري ، فقد تحولت بعض نماذجه الى قصائد وطنية مشبعة بروح الثورة ، والى رثاء عام للجماهير الفقيرة من ابناء الشعب خلال رثاء الفقيد .

ويموت القاضي يحيى محمد الارياني رئيس الاستئناف وكان من العلماء المشهود لهم بالنزاهة والعفة فيغتنم الزبيري هذه المناسبة ليرثي من خلال رثاء الارياني شعبه الذي يتساقط تحت وطأة الجوع ورعب المرض :

شمس طواها بليل القبر مقدور ... فالنور مفتقد والصبح مقبور
يحيى مصابك هد الشعب وانحطمت ... قواه وهو لعمري فيك معذور
علمته الخلق الاسمى وكنت له ... كمصحف فيه تحذير وتبشير
نزهت نفسك عن سمت قد انفمست ... فيه الاكف الاثيمات المشاهير(٣٢)

وشاع امر هذه المرثية في أوساط المجتمع ، وكان حظها من الانتشار والتأثير في ظروف المحنة بحيث قراها أو استمع الى انشادها جمهور الشعب .

ويقول الزبيري في أعقـــاب انتشار القصيدة : **وانـــا اذكر ان قصيدتي في استعطاف الامام والشكوى من اهوال السجن قد انتشرت في صفوف الشعب انتشارا سريعا قبل ان ترسل النسخة المرسلة الى الامام . انها احدثت اثـــرا عاطفيا في صالح الاحرار المعتقلين** (٣٣) . وهكذا اعتبر الشاعر وفاة الارياني فرصة لاستثارة دموع الشعب على موتاه واستطاع أن يستخدم أسلوب الكشف والاسقاط وان يعرض بالحكم والحاكمين وبالعلماء وهم ـــ في نظره ـــ لصـــوص لم يكفوا عن السلب والاختلاس .

ان هذا التطور الفني الذي أصاب شعر الزبيري قد أضفى عليه قدرا من التطور والمعاصرة ، كما أعد مرثاة رثى بها شعب اليمن كافة حين أخفقت الثورة اليمنية الدستورية عام ١٩٤٨ وهو يبكي بها شعبه الذي مات مع اخفاق الثورة .

بداها بمقدمة حزينة تعبر عن الانكسار والذل الذي لف الشعب بأسره ، وقد حفلت هذه القصيدة بايمان عميق تحول معه الدفاع الى الهجوم والبكاء الى الثورة ومطلعها :

مـــا كنت احسب اني سوف ارثيـــه وان شعري الى الدنيا سينعيه(٣٤)

سبق وذكرنا أن الزبيري حين كان طالبا مستمعا في دار العلوم بالقاهرة استطاع أن يستوعب حركة الشعر العربي المعاصر وتمكن ان يدخل روح العصر والمعاصرة على الشعر اليمني الذي ربطه بالقضية الوطنية فكان بحق شاعرا ملتزما بقضايا وطنه وأمته على السواء .

كان اذا نظم القصيدة الوطنية جاءت عنده على شكل محاورات وتساؤلات يطرحها على نفسه لماذا يعيش اليمن دون بقية الاقطار العربية هذا المستوى ؟ لماذا يترك اليمانيون أرضهم الغنية الواسعة ويضربون في شتى بقاع الارض ؟ وها هو يصفهم بقوله :

مـــا لليمـــانيين في نظـــراتهم بـــؤس وفي كلمـــاتهـــم آلام(٣٤)

ان اسلوبه يقوم على التجديد في مضامين الشعر ، كما تتجلى قدرته على تحميل الاغراض القديمة مضامين جديدة ، وقد جدد في الاغراض وفي نقل المشاعر والعواطف والاحساس ، اما الصورة عنده فقد تطورت واصبحت حيوية ذات حركة حزينة مثيرة .

كان يستخدم المعادل الموضوعي ويوفق في المزج بين المستويين الواقعي والرمزي في معظم أشعاره .

وللزبيري بعض من نتاج الشعر المسرحي ... ولعل محاولته الناجحة في قصيدته « سجل مكانك في التاريخ يا قلم » والتي ظهرت على صورة حوار بين

« عسكري الامام المحصل للزكاة » و « عجـوز » وقصيدته هذه توضح لنا هذا الاتجاه لدى الزبيري :

المـــــراة :

يا رب كيف خلقت الجنـد ليس لهم — عندي طعـام ولا شـاء ولا نعم
ويلاه ما لي ارى وحشـا وبندقـة — اذلك العسكري الغـاشم المنهم

العسكري :

نعم انـا البطل المغـوار جئت الى — عجوزة لم يهذب طبعهـا الهرم
انـا جنـود امـير المؤمنـين فـلم — لا تذبحي الكبش يا حمقاء دونهمو
اين الدجـاجة اين القـات فابتعدي — انـا جيـاع وما في حيـكم كرم

المـــــراة :

يـا سيدي ليس لي مـال ولا نشب — ولا رجـال ولا اهـل ولا رحم

العسكري :

انـي اذن راجـع لكـوخ اهدمـه — يا شافعيـة ان الكذب دابكمـو(٣٥)

ويلح الشاعر على استخدام كلمة (شافعيـة) ليبرز من خلالها اغراق الشعب بالطائفية العدائية فهذا شافعي وهذا زيدي الى اخر هذه التصنيفات الاجتماعية .

وان الدارس لاشعار الزبيري يلمس بوضوح سيطرة الميول الرومانسية ونزوعه الى التجديد في اللغة الشعرية ولا يخلو شعره من نفثات رومانسية رائعة فهو يناجي البلبل :

الا ايهـا البلبـل العبقـري — والصـادق المـدره الفيصـل
تنفس فانفاسـك الخـالـدات — روح الريـاض التي ترفـل
غنـاؤك للطبـع لم تكثـرت — اضاعوا غنونـك أم سجـلوا
تغنـي وتـرقص في دوحـة — كأن أزاهـيرهـا محفـل(٣٦)

وهو هنا شاعر رومانسي يتغنى بالفطرة ويحن الى الطبيعة والعزلة وهو يغبط الطائر على حريته المادية والمعنوية . كما يفلت في الغناء من القيود اللغوية والتصنع الجماهيري والالزام ، والترفع عن هموم الاخرين ، والقصيدة بعد هذا وذاك محور اساسي في المذهب الرومانسي وتجسيد النزعة الذاتية في الشعر .

ان الرؤية الرومانسية ثورة عبرت عن القلق العام والنفور مما هو كائن.

ان قصائد الزبيري المغرقة في الرومانسية الثورية كانت الصوت الحـزين

في دعوته للثورة والتغيير .

يقول الشاعر عبدالله البردوني : « **قامت شهرة الزبيري على اسس ثلاثة :**
ـ **أن الزبيري كان امتدادا متجددا للشعر العربي في عهد فحولته وفي عهد النهضة .**
ـ **المشاركة الوجدانية للافراد وللشعب** ، فقلما يموت عالم أو يؤلف فقيه كتابا لا يشيد الزبيري بالميت أو يثني على المؤلف ، فكان لذلك شعره منتظرا في كل مناسبة .
ـ **تكريسه الشعر للوطنية** ، فكان الوطن ذاته وموضوعه ولعل هذا سر خطورة شعره ودلالة بقائه حتى بعد موته » (٣٧) .

ترك الزبيري ديوانين من الشعر (**ثورة الشعر**) و (**صلاة في الجحيم**) وكلاهما مطبوعان ثم رواية ادبية (**مأساة واق الواق**) ورواية سياسية هي (**الخدعة الكبرى**) وبحثا سياسيا (**خطر الامامة**) كما ترك الزبيري مخطوطة ادبية لم تر النور حتى الان وتتضمن مسرحية (**العجوز وعسكري الامام**) وتنتظر من يدرسها ويحققها ويطبعها .

لقد كان شعر الزبيري مرآة لنفسه في رضاه وسخطه وفي خوفه من الامام وأمنه ويتخلله الانفعال العميق حتى ليعصف أحيانا بكل شيء ويبدو كالجمل الهائج لا يرده شيء فهذه صفة في نفس الزبيري قبل أن تكون في شعره .

المراجع :

١ ـ الابعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن ـ عبد العزيز المقالح . طبعة دار العودة ـ بيروت ١٩٧٤ ، ص ٢٠ .
٢ ـ رحلة في الشعر اليمني ـ عبدالله البردوني ـ طبع الدار الحديثة للطباعة والنشر تعز ١٩٧٢ ص ١٩ .
٣ ـ لكل منهما اثار ادبية جيدة في الحركة الشعرية المعاصرة في اليمن وقد طبعت لهما عدة دواوين في كل من تعز وبيروت .
٤ ـ الشعر المعاصر في اليمن ـ ٥ . عز الدين اسماعيل ـ طبع بيروت ١٩٧٢ .
٥ ـ ديوان صلاة في الجحيم ص ٥٥ .
٦ ـ ديوان ثورة الشعر ص ١٣٥ .
٧ ـ ديوان صلاة في الجحيم ص ١٣٠ .
٨ ـ الشعر المعاصر في اليمن ص ١٥ .
٩ ـ مجلة الاداب اللبنانية عدد ك ٢ ، ١٩٦٤ .
١٠ ـ المصدر السابق .

١١ ــ ديوان صلاة في الجحيم ص ١٤٥ .
١٢ ــ المصدر السابق ص ١٤٦ .
١٣ ــ المصدر السابق ص ١٤٧ .
١٤ ــ المصدر السابق ص ١٤٧ .
١٥ ــ المصدر السابق ص ١٤٩ .
١٦ ــ المصدر السابق ص ١٥٠ .
١٧ ــ ديوان صلاة الجحيم ص ١٥١ .
١٨ ــ ديوان صلاة الجحيم ص ١١٨ .
١٩ ــ الشعر في المعركة طبع تعز ١٩٥٩ ص ١٥ .
٢٠ ــ ديوان ثورة الشعر ص ١٣٨ .
٢١ ــ ديوان ثورة الشعر ص ٥٩ .
٢٢ ــ ديوان ثورة الشعر ص ٦١ .
٢٣ ــ ديوان ثورة الشعر ص ٧٥ .
٢٤ ــ ديوان ثورة الشعر ص ١١ .
٢٥ ــ ديوان صلاة في الجحيم ص ١٥٦ .
٢٦ ــ مجلة المصباح اليمنية ــ وهي مجلة فصلية تصدر عن تعز ، ص ٢٠ .
٢٧ ــ مجلة الاداب اللبنانية ، ص ٣ ، ١٩٦٤ .
٢٨ ــ مجلة المصباح ص ٢٥ عدد ٢ سنة ١٩٣٠ .
٢٩ ــ المرجع السابق .
٣٠ ــ مخطوطة رقم الورقة ٢٣ .
٣١ ــ مخطوطة ٢٤ .
٣٢ ــ ثورة الشعر ص ٢٥ .
٣٣ ــ سبقت الاشارة اليها في صفحة ٢٠ من هذه الدراسة .
٣٤ ــ مخطوطة ص ٢٥ .
٣٥ ــ شعراء اليمن المعاصرون ص ٥٢ .
٣٦ ــ المرجع السابق .
٣٧ ــ رحلة في الشعر اليمني ص ٧٠ .